طريق السعادة . . .

اذا حملت مصباح التفتيش عن سعادتك . . فى دياجير الشقاء ، فاعلم أنك تطمس بذلك بصيص السعادة الذى ربما رآه — من عاش — فى الظلام .

لا أستطيع أن أزعم أن كل ما سأحدثكم به من وحى الخيال ، فقد ألف الواقع معظم أجزائه ، ولذلك فإننى لم ألق أية صعوبة عندما استعرضت الماضى لأخرج هذه الحادثة من طيات الشعور ، بعد أن حجبتها فترة من الزمن ليست بقصيرة فى أعمار الحوادث . . التى تتعاقب دون ما انقطاع . . ويجب أن اعترف بأنى قد ضغطتها ضغطا قاسيا ، لتتناسب ومستلزمات المجلة من ناحية ، ولكى أتجنب بعض التفاصيل التى أحب أن احتفظ بها لنفسى من ناحية أخرى .

* * *

طالما عرفت صديقى ، هذا الذى سأحدثكم عنه ، والابتسامة لا تفارق شفتيه ، ونظراته تدل بوضوح على طيبة قلبه وصفاء سريرته .

يفكر بهدوء وينعم النظر فى صمت ، حتى إذا ما واتته الفكرة رفع رأسه ونظر إلى من خلف نظارته نظرة ملؤها الطمأنينة . . ملؤها الرضى إلى الحل الذى ألهمته إياه قريحته . تلك القريحة التى لا تفتأ تسعفه دائما بأطيب الحلول .

عرفته محبا للوحدة والسكون . يلتجىء اليهما ليملأهما بالنجوى الصامته ، جائلا بروحه المتجردة من ضباب المادة ، فى ملكوت العقل ، فى وادى النور البعيد ، حيث المعرفة العميقة . . وترتد إليه من هناك بصور واضحة مما شاهدته فى ذلك العالم النورى العجيب . . عالم اللانهاية . . عالم الخلود .

كان يعشق الأدب ، ويقرض الشعر ، ويحب الفلسفة ، كأنه قد تجرد إلا من روحه الصافية الطاهرة النيرة ، التى تشع صفاء ورقة ، وتفيض بالمنطق والحكمة .

ذلك هو حال صديقى . . صديقى الذي أحب المثل العليا وآثرها ، منصرفا عن كل ما يصرف النفس إلى غير الحق والخير والجمال . فكان يخيل إلى أنه لابد أن يكون من هؤلاء القديسين الأطهار ، أو من أولئك الصوفيين الذين استغرقوا أنفسهم فى حب الذات ففنوا فيها .

كنا نلتقى كثيراً فنتبادل الأفكار فى جو لا يشوبه كدر . . يحدثنى وأحدثه ، وألقى إليه برأيى ويلقى إلى برأيه ، وعندها يتفاعل الرأيان فى جو مشبع بالشوق إلى المعرفة الخالصة لذاتها ، ثم نقوم من محراب البحث المقدس شاكرين لآله الحق أن هدانا إلى مركب الرأيين . . هو خلاصة ما نصل إليه ، ونتفق عليه .

ولكنى عرفته بعد ذلك شخصا آخر . . شخصا قد لعبت فيه أياد خفية ، واستبد به سلطان مجهول خفى على أمره مدة لم تكن — للأسف — بقصيرة .

لقد حل الصمت المخيف والاكتئاب الموحش محل تلك الابتسامة الحلوة التى كانت تملأ شفتيه وأصبحت نظراته شاردة تدل على القلق الدفين وتنم عن الحزن العميق .

ولم يعد يهتم بتلك الموضوعات التى كنا نثيرها من وقت لآخر ، بل تراه وقد خيم عليه الصمت مطرق الرأس . . وقد زاد ذلك اعوجاج ظهره كأنما يريد أن يقترب من الأرض التى ربما وجد فيها خير حل لمشكلاته الجديدة . . .

حقا إنها لجديدة ؟ بل وتختلف فى طبيعتها كل الاختلاف عن تلك المشكلات القديمة التى كنا لا نعدم أن نجد لها حلا مرضيا ولو إلى حين . . .

ما أبعد الفرق بين هذه وتلك . . . فهذا المنطق وقد فاض من لسانه وحل محله الاضطراب والارتعاش فى حركات الوجه واليد واللسان .

وكثيراً ما رأيت دموعه السخينة تنساب من مقلتيه

اللتين تتأججان احمراراً لتسيل على وجنتيه اللتين برزت عظامهما من الهزال .. وكأن جسمه قد تحول فى مدة وجيزة إلى شبه هيكل عظمى ، أفقده السهاد والقلق أبرز صفاته الحيوية .

حاولت ما وسعني الحول ، وجاهدت ما وسعنى الجهد فى أن أستكنه سره الدفين . . ولكن كل محاولاتى باءت بالفشل التام ، فكلما ازددت إلحاحا فى طلبى كلما ازداد عناداً وإصرارا فى إخفائه ، بل وفى تعقيده .

وذات يوم كنت على موعد معه فى حديقة عامة . . وقد جلست فى انتظاره على كرسى خشبى صغير أمام بركة صغيرة تتدفق فيها المياه . . وشعرت بالارتياح الشديد أمام هذه المناظر والأصوات الطبيعية ، فرحت فى شبه غفوة قصيرة ، ولكنى لم ألبث كثيراً حتى سمعت صوتا معروفا لدى وان كان قد اختلف كثيراً . فقد خيل إلى أنه صادر من أعماق بئر سحيق ، فرفعت رأسى مذعوراً ، وإذا بى أرى ، ويا لهول ما رأيت — صديقى . . الجثة المتحركة ؟ — وهنا أرفع القلم قليلا فقد شعرت بالقشعريرة تسرى فى بدنى ، فلا أزال أهز كلما استحضرت صورة ذهنية لهذا المشهد الرهيب لقد كان هندامه فى غاية الفوضى وبدا لى أنه كان فى غاية الشحوب . .

أشار إلى بيد هزيلة مرتجفة وبصوت أشبه بالهمس قائلا : تعال . .

فقمت خائفا كمن أنذر بخطر جسيم يقترب ، ومشيت قليلا مع الميت الحى حتى اتخذنا مجلسنا بعيدين عن الناس .

وهناك ظل صامتا لمدة طويلة ، مطرقا برأسه . . وبدا لى أنه كان يحاول أن يجمع شتات فكره ، ثم رفع رأسه وصوب إلى نظرة خاصة فرحت لها وظننت أننا سنعود بعدها إلى سيرتنا الأولى . . ولكن هذه النظرة انطفأت من عينيه وانطفأ معها كل أمل فى استعادة هنائه وسعادته .

وليس فى استطاعتى أن أسرد ما جاء — بالتفصيل — فى هذه الجلسة . . وإنما أقول أنه راح يسخر منى كثيرا . . وإن أنس لا أنس تلك النظرة التى رمقنى بها والتى أثارت شفقتى كثيرا حين راح يسألنى وهو يضرب بجمع يده على المنضدة : إذن . . ماهو طريق السعادة ؟ وهل السعادة عندك فى إسعاد الروح أم فى إسعاد البدن .

الحق أن المشكلة دقيقة وخاضعة لمختلف الآراء التى كل منها قابل للمناقشة . . ولكن بدا لى أن أسحر منه نظير ما سخر منى فوجدتنى أندفع لأقول : الحق أننى لا أجد فى قاموسى تحديدا دقيقا لما تسميه بالسعادة . . .

ولكن إذا كان لا بد أن أقول شيئا عن السعادة ، فاعلم أنها تلك السويعات أو على الأقل هى تلك اللحظات التى فيها يمتع الواحد منا ميوله وأهواءه وما تتطلبه أبسط فروض الحياة . . أما هذا الذى يحمل مصباح التفتيش عن سعادته . .

وقاطعنى بصرخة حادة انطلقت من فمه الذاوى ، وصاح كفاية . . هذه الثرثرة الكلامية ، إذن هكذا ترى طريق السعادة . . .

ثم صمت لحظة ووقف قائلا بصوت متحشرج . . . لقد ظننت أن لى صديقا كنفسى . أما الآن ... فالوداع . .

وتركنى فى دهشة بالغة واضطراب شديد . لقد جف ريقى ، وخارت قواى ، فلم أقو على النهوض .

ومرت على بعدها بضعة أيام لا شغل لى إلا التفكير فيه واستعراض تاريخه : ماضيه وحاضره . . وومضت فى ذهنى فكرة وذلك عندما تذكرت قوله فى اجتماعنا الأخير « إننا لنجبن عن مواجهة السعادة الدائمة . . فنتركها دائما بيد القدر . . . » رنت هذه العبارة فى أذنى رنة ذات معنى خطير ، وأدركت الطريق الذى سيخوضه صديقى . . وتصورت نوع العمل الذى سيقدم عليه فى سبيل سعادته ...

وندمت على ترك صديقى الذى ذهب منى وهو يتحدى القدر ، وأسرعت إلى منزله لكى أؤدى واجب الصداقة السامى .. فى إنقاذ نفس ضلت طريقها السوى ، وآثرت أن تسير متخبطة حيرى وقد أوشكت أن تشيع بغضب الخالق . . .

وهناك — فى منزله — شعرت أننى قد تأخرت . . كثيراً . . لقد اختفى — ويا للحسرة — منذ أيام . اختفى وتركنى للقدر . .

أما هو فقد ذهب ليبحث عن سعادته .. فى أعماق النيل ..

محمود توفيق

(قسم الفلسفة — كلية الآداب)